بين تأثير القرآن وأساليب اليونان: البعث نموذجا

كانت ولا تزال قضية الأسلوب وطريقة الاستدلال من أهم قضايا النزاع في المسائل العلمية والعملية؛ لأن الشرع في تقرير القضايا يطلب الموافقة في التصور والأسلوب، ولا يكتفي بالموافقة التلقائية؛ لأنها قد تكون رديفة الهوى، فالمسلم مطالب شرعًا بالاقتناع بجميع قضايا الدين وفقًا لما تقرّره النصوص، وهو مع ذلك مطالب بالتسليم بطريقة الدين في تقريرها وإقامة الحجة عليها، فمن اقتنع بالبعث والنشور لأن كتابًا سماويًّا غير القرآن أخبره بذلك، فإن ذلك لا ينفعه ما لم يؤمن بخبر القرآن وأسلوبه وما يقرر وما يضيف بهذا الصدد، وذلك لتميز أسلوب القرآن في تقرير مسائل الاعتقاد وقضية البعث خصوصا؛ لأنه يخاطب في الإنسان عقله وفكره وعاطفته، ويرشده إلى الحق عبر كثير من المؤثرات والأدلة، ولا يعتمد أسلوبًا واحدًا كما هو شأن بعض العلوم العقلية.

واليوم نعرض للقارئ الكريم نبذة مختصرة عن أساليب القرآن في تقرير البعث والنشور، ونبيِّن الفرق بينها وبين طريقة المناطقة من متكلمين وفلاسفة، ونحن نجمع بينهم في هذا المقام مع علمنا ببعض الفروق بينهم؛ لأنه يجمع بينهم أسلوب واحد وهو محل المقارنة، وهو اعتماد الأدلة العقلية وجعل الوحي عاضدًا لها بدل العكس، وهو اعتماد الوحي وجعل الأدلة العقلية تابعة له.

وقد تميَّزت طريق القرآن في إثبات البعث بأمور، منها: الإحالة إلى الواقع المشاهد، وذلك بأمور:

أولًا :بذكر القصص المعروفة عند الأمم، وخصوصًا أهل الكتاب، من إحياء الله لبعض من مات في هذه الدنيا، كما ذكر الله عز وجل في البقرة فقال: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُون }[البقرة: 72]، وقوله تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون }[البقرة: 73]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن

دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} [البقرة: 243.[

وكذلك قصة عزير: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 259.[

ثانيًا :ومنه كذلك ضرب الأمثلة من الواقع والحياة، وهو أسلوب يمتاز بأمرين: القرب وقلة المقدمات، وسرعة التأثير، وقد ضرب الله الأمثلة على البعث بأمور يشترك الناس في العلم بها وفي إدراك ما ينبني على مقدماتها، ومن ذلك ما ذكره سبحانه في الواقعة فقال: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور.[35 :

قال جبير بن مطعم: "لما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ} [الطور: 35-37] كاد قلبي أن يطير.([1])"

وقوله: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ} [الواقعة: 58]، إلى قوله: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} [الواقعة: 62]. "وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين -أعني الذكر والأنثى- من النطفة جاء موضَّحًا في غير هذا الموضع، وأنه يستدل به على أمرين هما: قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى : {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (39) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} [القيامة: 36-40[، فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله: {أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ

أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ}، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرا على من ظن ذلك بقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}، أي: مهملا من التكليف والجزاء.([2])"

ثالثًا :أسلوب التحدّي، من ذلك أن منكري البعث تدور أدلتهم حول استبعاده، فيعمد القرآن إلى التحدي والإحالة إلى الأشياء المستعظمة في نفوس هؤلاء، وتعجيزهم بها، من ذلك: قوله سبحانه: {قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا} [الإسراء: 51]، وغير ذلك من الأدلة العقلية في بابها.

وقد أجمل ابن القيم خصائص الأدلة العقلية في القرآن بقوله: "الله سبحانه حاجَّ عباده على ألسن رسله وأنبيائه فيما أراد تقريرهم به وإلزامهم إياه بأقرب الطرق إلى العقل، وأسهلها تناولًا، وأقلّها تكلُّفًا، وأعظمها غناءً ونفعًا، وأجلّها ثمرةً وفائدة، فحججه سبحانه العقلية التي بيَّنها في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية، ظاهرة واضحة، قليلة المقدمات، سهلة الفهم، قريبة التناول، قاطعة للشكوك والشبه، ملزمة للمعاند والجاحد؛ ولهذا كانت المعارف التي استنبطت منها في القلوب أرسخ ولعموم الخلق أنفع.([3])"

وقد كانت طريقة المتكلمين على الضدِّ من هذا، فقد عمدوا إلى مسألة الأعراض والأجسام، وخفضوا فيها ورفعوا، وجعلوها أصل الباب ونظرية الجوهر الفرد، وقد فصلنا ذلك في مقال سابق([4])، وبينا طريقتهم فيه، وهي تمتاز بالغموض وقلة التأثير وعدم الشمول؛ وذلك أنه لا يمكن إفهامها لكل أحد، والوحي يخاطب به جميع الناس، فلزم أن تكون قضاياه واضحة لهم، سهلة الاعتقاد، أما أدلة المتكلمين فقد امتازت ببعد المقدمة وتعقيد النتائج والغموض في التقعيد لها وعدم القدرة على التسليم بها، بينما كانت أدلة القرآن واضحة البيان ساطعة البرهان، تحيل على العقل الصريح، وتستند إلى الحس الملموس، ولا يستطيع أحد دفعها بمثلها، ومع بلوغها لا يتركها الإنسان إلى غيرها إلا مكابرة واستكبارًا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

)المراجع(

([1])أخرجه البخاري.(4573)

([2])أضواء البيان.(7/ 473)

([3])الصواعق المرسلة.(4/451)

([4])إثبات وجود الله بين القرآن والفلسفة وعلم الكلام https: //salafcenter.org/2626/